

قناة لوغوس بالولايات المتحدة الأمريكية

أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٦ م

الحلقات الثالثة والرابعة والخامسة

أنواع المعموديات التي سبقت المعمودية المسيحية

(١) الاستحمامات المقدسة في الديانات الوثنية

نقرأ عند العلامة تريليان (١٦٠-٢٢٥ م) وصفاً للاستحمامات والوضوءات التي كانت معهودة في الديانات الوثنية ذات الأسرار، وذلك في معرض مقارنته بينها وبين المعمودية المسيحية، فيقول:

[يدخلون الوثنيين بالاستحمام إلى بعض الأسرار، كأسرار إيزيس وميترا ... وينضحون بالماء النقي منازلهم وهياكلهم، بل مُدناً بأكملها لتطهيرها ... يغتسلون بكثرة، ظانين أنهم إذًا يتجددون وتُغفر ذنوبهم^(١).

ولقد ذهب بعض مؤرخي الأديان إلى القول بأن المعمودية المسيحية ليست سوى استمراراً للعماد الذي نجده في الديانات الوثنية ذات الأسرار. ولكنّه استنتاج ساذج اعتمد على المظهر الخارجي فقط دون أن يبحث في الجوهر. فالوضوءات الوثنية لا تستند إلى حدث تاريخي ينبع منه وجودها وجوهرها، بل هي استعمال عفوي نابع عن اقتناع الإنسان بضرورة التّطهّر للاقتراب من الإله. ومن جهة أخرى، بما توحى به طبيعة المياه، وعلاقتها المباشرة بالنّظافة والنّقاوة.

أمّا ما أكسب المعمودية المسيحية صفة مغايرة لمعموديات الديانات الوثنية، فهو عماد السيّد المسيح نفسه ابن الله في مياه الأردن، كحدث تاريخي خلاصي إلهي أبدي، بدأ في مياه الأردن وامتد حتى اليوم، يهب لكلّ المعتمدين على مثاله باسم الآب والابن والروح القدس، ميلاداً جديداً من الله، فيُدعى المعتمدون على مثاله "أبناء الله" «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الرّوح هو روح» (يوحنا ٦:٣).

إذاً، فعل الرّوح القدس في المعمودية هو الذي أعطى للمعمودية المسيحية معناها الذي لا يوجد مثيله في الديانات الوثنية، أو أية ديانات أخرى. لذلك ففيما كانت تُكرّر الاستحمامات والوضوءات مراراً وتكراراً بلا انقطاع، تُعطى المعمودية المسيحية مرّة واحدة، لأنّها ميلادٌ حقيقيٌّ كاملٌ نهائيٌّ من الله، وممتدٌ فيه «الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله» (يوحنا ١:١٣).

(٢) معمودية موسى

يقول عنها القديس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٨٩):

[إنّ موسى كان يُعمّد، ولكن تعميده كان بالماء، وقبل ذلك في الغمام وفي البحر. وهذا كان رسماً فقط كما رأى بولس الرسول أيضاً] (العظة ٣٩ في عيد الظهور الإلهي).

وكلام القديس غريغوريوس اللاهوتي عن "معمودية موسى"، لا يعني أنّ موسى نفسه كان يُعمّد، ولكنّه يشير هنا إلى أنواع الاغتسالات والتطهيرات بالماء، التي أمر بها ناموس موسى. ولم يكن القديس غريغوريوس النيولوجوس هو أوّل من تطرّق إلى ذكر "معمودية موسى"، إذ أنّ القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩ م) قد سبقه في الحديث عنها، وذلك في كتابه عن "المعمودية"،

¹ Tertullien, *Traité du Baptême*, SC 35, V.1, p. 71 72.

ليشرح سمو المعمودية المسيح على كل من معمودية موسى، ومعمودية يوحنا المعمدان فيقول في ذلك:

[إنني اعتقد أنه من الموافق ... أن نبحت في عُجالة الفرق بين معمودية موسى ومعمودية يوحنا المعمدان، لكي نصير مؤهلين بنعمة الله لأن ندرك سمو معمودية ربنا يسوع المسيح التي تفوق كليهما في سمو مجدها الذي لا يُقارن ... فيقدر ما أن الروح القدس متميز عن الماء، كذلك بالتأكيد فإن من يعتمد من الروح القدس متميز عن من يعتمد بالماء ...] (المعمودية ١: ٤: ٢٠، ٥).

(٣) معمودية المنتهدين

وهي تُسمى معمودية المنتهدين أو المهتدين أو الدُخلاء Proselyte Baptism . وكانت تُمارس احتفالاً بدخول أحد الأُميين للديانة اليهودية، سواء كانوا من الرجال أو النساء أو الأطفال أو العبيد. وكان الماء فقط هو المستخدم في طقسها. وهي معمودية لم يمكننا حتى الآن اقتفاء آثارها الأولى بدقة، ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها لم تبدأ قبل القرن الأول الميلادي، فلم يرد ذكرها لا في أسفار العهد القديم ولا في أسفار ما بين العهدين، ولا عند فيلو (١٣ق.م - ٥٠ب.م) ولا عند يوسيفوس (٣٧-١٠١م)، وهي لذلك لم تكن مبكرة بالقدر الذي يسمح لها بأي تأثير على طقوس ومراسيم المعمودية المسيحية^(٢).

أمّا عن طقوسها، فعندما يتحوّل المهتدون من الوثنية إلى اليهودية، فإن الرجال منهم يختنون أولاً حسب شريعة موسى. وبعد ذلك بأسبوع، كانوا يقبلون معمودية المهتدين. أمّا طقس هذه المعمودية، فهو شبيه بطقس معمودية العهد الجديد - كطقس وليس كعمى - فعندما يقبل المهتدون الديانة اليهودية ويؤمنون بيهوه أنه هو الإله، يخلعون ملابسهم الأُممية وينزلون عُرة إلى الماء. ويقفون في الماء الذي يغطيهم إلى حقوبهم إن كانوا رجالاً، أو إلى رقابهم إن كُنن نسوة. أمّا الرّي فيذكرهم بأعمال يهوه العظيمة التي افتدى بها شعبه من عبودية مصر، ويشرح لهم الوصايا والعهد التي أعطاهم إياها على جبل سيناء. بعد ذلك يجيب المعتمد حديثاً بقوله: "سأفعل كل ما أمر به الرب وأكون طائعاً له". ثم يُغطس نفسه في الماء، وإذا يشترط عليه الرّي شروطاً يجيب عليها بالإيجاب، يُكمل تغطيس نفسه في الماء ثلاث مرّات.

وبعد الغطسة الثالثة، يخرج المعتمد حديثاً من الماء، ويرتدي ثيابه اليهودية الجديدة، ويقبل اسماً يهودياً جديداً، ويصبح بذلك منتسباً إلى رعوية شعب إسرائيل ذي عُمر يوم واحد. أمّا اسمه القديم وصدقاته القديمة وهويته السابقة، فقد صارت كلها في حُكم الموت، وغرقت في الماء الذي خرج منه إنساناً يهودياً، له شرف العضوية في شعب إسرائيل.

وكانت معمودية المهتدين تجري على النساء أكثر بكثير جدّاً من الرجال. وإن كان العالم اللّيتورجي الأب جون هيرون John Heron (من مواليد ١٩٢٨م) لم يذكر السبب في ذلك، إلا أنني أعتقد أن ذلك كان بسبب أن الرجال كانوا يختنون كعلامة وختم لانضمامهم إلى رعوية شعب إسرائيل، أمّا المرأة فقد كانت في احتياج إلى طقس فعلي تمارسه شخصياً لتحوز بموجبه على أحقية الانضمام إلى شعب الله، فلا تكون علاقتها بالله كعضو في شعبه المختار من خلال الرجل، إذ ظلت المرأة تُعتبر أن هذا الأمر هو بمثابة امتهان لها، ولمكانتها في المجتمع الجديد الذي انضمت إليه، أي ذلك المجتمع اليهودي الذي كانت فيه كل الوصايا والأحكام والشرائع والطقوس والامتيازات والعهد، هي للرجل.

وإنّ الأعداد الكبيرة من المهتديات اللّائمي كنّ يتقبّلن معمودية المهتدين أكثر من الرجال، قد دفع بعض الرّبيين للاعتقاد بأن المعمودية - وليس الختان - هي اللّحظة الحاسمة التي ينضم فيها المهتدي إلى رعوية شعب إسرائيل. وينحصر الطّقس الكامل لقبول المهتدي إلى اليهودية في ثلاثة أمور هي: الختان، المعمودية، تقديم الذبيحة.

وكقانون عام، فإنّ هذه المعمودية كانت تتم بواسطة الشخص المعتمد نفسه، والذي يُغطس نفسه بنفسه في الماء - self

² Cf. *The Interpreter's Dictionary of the Bible*, Abingdon Press, 1962, vol. I, p. 348- 349.

administered . ولهذا القانون العام استثناءان:

الاستثناء الأول: كان الأطفال الصغار يُقادون إلى الماء بواسطة والديهم، ويُعمدون في الماء أيضاً بواسطة آبائهم.
الاستثناء الثاني: كان العبيد يُقادون إلى الماء بواسطة سادتهم، حيث يقوم السيد بتعميد عبده. أمّا إن سُمح للعبد أن يعمد نفسه بنفسه، فإنّ الربّي يعلن أنّ عبوديته التي كانت جزءاً من حياته القديمة قد انتهت في مياه المعمودية، حيث يخرج من الماء يهودياً حراً.

ويقول ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧ م) عن معمودية المنتهدين:

[اعلموا أنّ معمودية اليهود كانت معمودية أيضاً، ولكنها كانت تُطهر الأنداس الجسدية، لا الأنداس الروحية وهي الخطايا ... وأمّا معموديتنا فليست هكذا، فهي أعظم شرفاً من تلك، وأجلّ نعمة، لأنها تنجّي الإنسان من آثامه، وتطهر النفس وتنقيها، وهب نعمة روحية] (العهدة ١٥ على الأسرار).

ولابد أن نذكر هنا معمودية الأسينيين ووضوئهم. فقد كان الأسينيون من الفرق اليهودية التي كانت تلجأ دائماً وباستمرار إلى الوضوءات والاعتسالات الطقسية. وكانوا عائشين في قمران بجوار البحر الميت، في إطار حياة مشتركة، ينتظرون مجيء المسيح. وكل من كان يريد الانضمام إلى هذه الجماعة، كان يتهيأ لمدة سنة كاملة لغسلات طقسية يرافقها خلع ملابس وارتداء أخرى. فلقد كشفت الحفريات في منطقة قمران عن عدد كبير من خزانات المياه التي تثير الدهشة لكثرتها، وهذه الخزانات كانت متصلة بالخزان الرئيسي الذي يغذيها كلها، وذلك لتوفير المياه لجماعة كبيرة، عدا اثنين منها مزودة بدرج لتنظيم عملية نزول وصعود العدد الكبير من المستعملين لهذه الخزانات، ثمّ دفع بعض العلماء إلى الاعتقاد بأنّها حمامات خاصة لطقوس التطهيرات والغسلات الشرعية، إذ لا يمكن تصوّر كمية من الحمامات بهذا العدد، وبهذه الطريقة من الإعداد والتجهيز، لمجرد الاستخدام العادي.

وكان عماد الأسينيين يرافقه أعمال توبة، وهو في ذلك شبيه بمعمودية يوحنا المعمدان، حيث كانت المعمودية لا تعدي في مفعولها تقدم توبة لله، وتعهّد بحياة مبررة أمامه، دون أن تمنح هذه المعمودية القوة اللازمة لتنفيذ هذه التوبة، والحياة بموجبها. فكانت تعهد من قبل الإنسان فقط، بدون نوال فعل إلهي يصون هذا التعهد ويديمه، لذلك كانت تُكرّر دائماً. ويعتبر المؤرّخون اليوم أنّ "عمادات" الأسينيين تندرج ضمن مراسيم التطهير والوضوء التي مارسها كل اليهود^(٣).

(٤) معمودية يوحنا المعمدان

كان تعليم يوحنا المعمدان، هو دعوة للتوبة، وكانت علامة التوبة هي قبول المعمودية، كعربون الدخول إلى حياة جديدة. تلك الحياة التي وجدت تحقيقها عندما أكمل المسيا المعمودية يوحنا التي للتوبة، بمعمودية الروح القدس والنار.

ولم يتحدّث يوحنا المعمدان عن معموديته كهدف، إنّما كخطوة تؤهّل الإنسان لمعمودية أخرى أعظم منها. فإن كانت هذه المعمودية للتوبة لمغفرة الخطايا (مرقس ١: ٤، لوقا ٣: ٣) استعداداً لقبول المسيا، إلّا أنّها لم تمنح المعتمد الإنسان الجديد الذي لا يولد إلّا في المسيح بالروح القدس.

فاليهود كانوا يُعمدون لكي يُظهروا أمراً أكبر من مجرد عضويتهم في شعب إسرائيل القديم. فقد كان مطلوباً أن يُظهروا رغبتهم في اشتراكهم في مملكة المسيا، هذا الأمر الجديد كان هو بعينه الولاء الشخصي للمسيا، ولذلك كانوا يعتمدون كعبيد في خدمة "الآتي". وعلى ذلك كان يلزم أن يُعمدهم مُرسل من قبل الله، لا أن يعتمدوا هم أنفسهم بأنفسهم^(٤).

^٣ أسد رستم، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، لبنان، ١٩٥٩ م، ص ٨٢، ٨٣

^٤ لعل ذلك يذكرنا بقول بولس الرسول، والذي كرّره مراراً: «بولس عبد يسوع المسيح». إذ وجد نفسه يتقبّل المعمودية المسيحية من حنانيا أسقف دمشق، الذي عمّده وغطّسه في الماء، فخرج من الماء عبداً ليسوع المسيح الذي اعتمد لاسمه. فالعبد لا يعمد نفسه بل يعمده آخر، وكان هذا الآخر هو تلميذ يسوع المسيح.

ويقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) عن الفرق بين المعمودية يوحنا ومعمودية موسى: [إنَّ معمودية يوحنا كانت أسمى من معمودية موسى من عدَّة أوجه؛ فقد كانت لا تميِّز إطلاقاً بين أنواع الخطايا، فلم تتطلَّب لتتيممها ذبائح متنوِّعة، ولم تكن تراعي التَّدقيق في الجانب الطَّقسي لتتيممها، ولم تهتم بأيام معيَّنة دون غيرها. فبدون التَّقيد بأيِّ شكل يعيق نعمة الله ومسيحه، كانت تهب في الحال غفران الخطايا لأيِّ شخص يتقدَّم معترفاً بخطاياها مهما كانت ثقيلة وكثيرة، عندما يعتمد في نهر الأردن] (المعمودية: ٥:٢٠١).

ولكن القديس باسيليوس يوضِّح في نفس حديثه عن المعمودية، أن غفران الخطايا لا يكون إلا بدم المسيح نفسه. فيقول: [عندما يغطس الإنسان في معمودية النَّار ... يتطهَّر المرء بالإيمان في قوَّة دم ربِّنا يسوع المسيح. فالربُّ نفسه قال: «هذا هو دمي ... الذي يُسفك ... لمغفرة الخطايا» (متى ٢٦: ٢٨)، والرَّسول يشهد بقوله: «الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا» (أفسس ١: ٧)]. (المعمودية ١٠: ٢٠١).

ويوضِّح القديس يوحنا ذهبي الفم أنه لا يمكن لمعمودية يوحنا أن تهب غفران الخطايا، وذلك في تفسيره لإنجيل القديس متى فيقول: [لأنه لم تكن الذبيحة قدِّمت بعد، ولا انحدر الرُّوح القدس، ولا انحلت الخطيئة، ولا ارتفعت العداوة، ولا مُحيت اللعنة، فكيف أزمع الغفران أن يكون؟] (مقالة ١٠).

أمَّا القديس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٨٩) فهو يوضِّح بتدقيق أكثر الفرق بين معمودية اليهود، ومعمودية يوحنا، ومعمودية المسيح، فيقول: [يوحنا عمَّد، ولم تكن معمديته يهودية محضة، لأنَّه لم يعمَّد بالماء فقط بل للتَّوبة أيضاً. غير أنَّ معمديته لم تكن كلها روحية، لأنَّه لم يُضف لفظة "بالرُّوح". ويسوع أيضاً عمَّد ولكن بالرُّوح، وهذا هو الكمال] (عظة ٣٩ في عيد الظهور الإلهي).

ويوضِّح القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ذلك الأمر جلياً فيقول: [كانت معمودية يوحنا أرفع شأنًا من معمودية اليهود، وأقل قدرًا من معمديتنا. فهي كالجسد المتوسط، إذ تتميز عن معمودية اليهود بكونها لم تقود النَّاس إلى طهارة الأجساد، إنَّما كانت تحثُّهم على تغيير عوائدهم، وأن يتركوا الرَّذائل ويتحلَّوا بالفضائل، فيكون لهم رجاء الخلاص إذا هم عملوا صالحاً، وليس كالمعموديات المختلفة وباقي المياه المطهَّرة. لأنَّ يوحنا لم يأمرهم بغسل ثيابهم وأجسادهم للتطهير بل كان يأمرهم قائلاً: «اصنعوا أثماراً تليق بالتَّوبة» (متى ٣: ٨)] (العظة ١٥ على السَّرائر المقدَّسة).

وأودُّ هنا أن أوضح أيضاً كيف أنَّ معمودية يوحنا المعمدان، كانت تمنح غفران الخطايا، كقول الإنجيل المقدَّس، ولم تكن ذبيحة المسيح على الصَّليب قد تمَّت بعد؟
تتوقَّف القيمة اللاهوتية لمغفرة الخطايا على معنى التَّوبة لاهوتياً أولاً. فالتَّوبة تعني تغيير الفكر، ثمَّ تغيير السُّلوك تبعاً لذلك. فالتَّوبة وغفران الخطايا على يدي المعمدان، كانت تمهيدية، تؤهل الشَّعب للدخول - مجرد الدُّخول - في مجال عمل الابن الكفاري لنوال مغفرة الخطايا بالدم.

فإن كانت التَّوبة إلى الرَّجوع أو العودة ثانية إلى الله الحي، يكون الغفران بالتَّالي هو غفران خطايا البُعد عن الله وخيانتته، من كلِّ الأباطيل التي علَّمتها عبادة الأوثان للشَّعب. وإنَّ قبول الغفران من كلِّ الماضي المظلم، كان تأهيلاً للدُّخول في الإيمان بيسوع المسيح لقبول الفداء والخلاص وغفران الخطايا برمتها^(٥).

(٥) معمودية ربنا في مياه الأردن

هذه هي المعمودية التي صارت أساساً لمعمودية العهد الجديد، وبالتالي فقد أبطلت كل المعموديات التي سبقتها، والرموز التي أشارت إليها، لأنه حيث يتحقق الرموز إليه، يبطل الرمز.

فعندما جاء الرب إلى الأردن وأخذ مكانه بين طالبي معمودية يوحنا المعمدان، جاء نائباً عن كل البشر، واضعاً نفسه وحاسباً إياها بين الخطاة، لأنه يعلم أن هذه هي مشيئة الآب، لكي يتحقق البر للكثيرين. فلم يعتمد المسيح لنفسه بل لأجلنا.

وإذ خرج الرب من الماء بعد أن تعمّد، انفتحت السماوات له، ونزل روح الله مثل حمامة واستقر عليه، وصوت الآب من السموات قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (متى ٣: ١٧). وفي هذا يشهد يوحنا المعمدان نفسه قائلاً: «وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء، ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه، فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يوحنا ١: ٣٣، ٣٤).

لقد بدأت خدمة المسيح عند الأردن حينما استقر الروح القدس عليه لأجلنا، واكتملت بإرساله الروح القدس لأجلنا أيضاً عندما جلس الابن عن يمين أبيه. فيوم الخمسين هو اليوم الذي انتقلت فيه إلينا كل مفاعيل تلك المعمودية الواحدة التي للمسيح، لأنه في الروح القدس تعمّدت الكنيسة كلها بمعمودية المسيح الواحد، لتصبح فيه جسداً واحداً وروحاً واحداً، لإيمان واحد لمجد الله الآب.

إنَّ معموديتنا في العهد الجديد قد نالت كل مفاعيلها من معمودية المسيح. وقد لحّص الرسول بولس ذلك بقوله: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣: ٢٧). ويعقب القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) على ذلك فيقول: [لا ينخدع أحدٌ عندما أغفل الرسول كثيراً اسم الآب والروح القدس في الكلام عن المعمودية ... فاسم المسيح هو الإيمان كله]^(١).

(٦) معمودية التلاميذ

ليس هناك فرق بين معمودية يوحنا المعمدان والمعمودية التي أجراها التلاميذ قبل الصليب والقيامة، لأن هذه الأخيرة أيضاً كانت للتوبة والاستعداد. فالمعمودية لا يكتمل فعلها إلا بموت المسيح وقيامته، ولا تنتقل إلينا إلا بالروح القدس الذي وحده يقدر أن ينقل إلينا موت المسيح وحياته وقيامته. وهذا يوضحه العلامة تريليان (١٦٠-٢٢٥م) بقوله:

[تلاميذ المسيح عمّدوا كخدام، ويوحنا كذلك عمّد كسابق، فتكون معمودية التلاميذ هي معمودية يوحنا نفسها لا معمودية أخرى، إذ لم توجد ولا توجد معمودية أخرى سوى المؤسسة من يسوع المسيح. وهذه المعمودية لم يكن ممكناً أن تتم وقتئذ من التلاميذ، لأنه في ذلك الوقت لم يكن مجد الرب قد اتضح تماماً، وفاعلية الحميم لم تكن بعد قد تأيدت بألامه وقيامته] (في المعمودية: ١١).

ويؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) على ذلك، فيذكر أن كلا المعموديتين كانتا عديمي الروح، فيقول: [أي سبب قال إنه لم يكن يُعمّد؟ لأن يوحنا سبق فقال: «هو سيعمّدكم بالروح القدس ونار» (متى ٣: ١١)، ولم يكن الروح قد أُعطي بعد. إذاً لم يكن (يسوع) يُعمّد. أمّا التلاميذ فكانوا يعمّدون قاصدين أن يقدموا كثيرين للتعليم الخلاصي. وإن سأل أحدٌ بماذا كانت تمتاز معمودية التلاميذ عن معمودية يوحنا؟ نقول له: لم تكن تمتاز بشيء، لأن المعموديتين كليهما كانتا عديمي نعمة الروح، ولكليهما غاية واحدة في التعميد، وهي تقديم المعتمدين إلى المسيح. ولهذا فالمعمودية اليهودية تبطل، وأمّا معموديتنا فتأخذ ابتداءً.

^٦ القديس باسيليوس الكبير، الروح القدس، مرجع سابق، ٢٨: ١٢

وهنا أيضاً إذ تمّم (الرّب) المعمودية اليهودية، فتح حلاً أبواب المعمودية الكنيسة. وكما فعل في ذلك الوقت على مائدة واحدة، هكذا الآن في نهر واحد، رسم الظل ووضع الحقيقة. لأن هذه المعمودية وحدها لها نعمة الروح، وأمّا المعمودية يوحنا فكانت عادمة لهذه الموهبة، ولهذا السبب لم يحدث على سائر المعتمدين شيء من ذلك، ولا نالوا الروح القدس. أمّا عليه فقد انحدر الروح الذي هو مزعم أن يعطيه، لكي تتعلم ممّا سبق ذكره، أن هذا لم تفعله نقاوة المعمد، بل قدرة المعتمد، ومن ثمّ انفتحت السموات وقتئذ، وانحدر الروح [مقالة على إنجيل متى: ١٢: ٤] (٧).

(٧) معمودية الدّم أو الشهادة

يقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م):

[إنّ بعضنا نالوا الموت بالجهاد الذي عن حُسن العبادة، لأجل المسيح حقيقة لا اقتداءً، ولم يحتاجوا إلى شيء من الرسوم التي من الماء لخلاصهم، لأنّهم اعتمدوا بدمهم] (إلى لامفيلوشوس عن الروح القدس ١٥: ٣٦).

ويقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩-٣٨٩م):

[إنّني أعرفُ معموديةً أخرى أيضاً، وهي معمودية الشهادة أو الدّم، المعمودية التي اعتمدها مخلصنا نفسه، هذه المعمودية هي أكثر مجداً من غيرها] (عظة في عيد الظهور الإلهي).

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م):

[من لا يقبل المعمودية، فلا خلاص له ما عدا الشهداء وخدمهم، الذين بدون الماء ينالون الخلاص. لأنّ المخلص لما كان يفندي العالم بالصليب، نُخس في جنبه، فخرج منه دمٌ وماء، ليعتمد البعض بالماء في أوقات السّلام، والبعض الآخر بدمهم في أوقات الاضطرابات. إنّ المخلص دعا الشهادة صبغة (أي معمودية) بقوله: «هل تستطيع أن تشربا الكأس التي أشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التي اصطبغ بها؟»] (عظة ٣: ٨).

وفي النهاية أوردُ هنا صفحة من مخطوط بمكتبة دير القديس أنبا مقار تحت رقم (ق٢ / مسلسل ٢٦٣)، يعود إلى القرن السادس عشر، وهو مخطوط يحوي مجموعة قوانين كنسية. ولكنّ النّاسخ دوّن في إحدى ورقاته تأملاته الخاصة، أنقلُ منها ما يختص بالمعمودية، موضوع حديثنا فيقول:

هناك تسع معموديات:

- الأولى: معمودية موسى في السّحاب والبحر.
- الثانية: معمودية يشوع بن نون عند دخوله بيني إسرائيل أرض الميعاد.
- الثالثة: معمودية يوحنا بالماء للتوبة.
- الرابعة: معمودية المخلص من يوحنا.
- الخامسة: معمودية التلاميذ بالروح القدس (في يوم الخمسين).
- السادسة: دم الشهداء عند سفك دماهم.
- السابعة: دموع الخطاة عند التوبة بالاعتراف.
- الثامنة والتاسعة: معموديتنا لبس القلنسوة (الرهبنة)، والإسكيم.